موسكو، باكو.. العرب

غسان سلامة*

الحياة - ٢٠/٨/٩٠

■ بينما تدخل دبابات الجيش الأحمر عاصمة اذربيجان، وبينما تطلب اذاعات الانفصاليين الآذريين دعم تركيا، وبينما تتوالى التهديدات الايرانية باشعال «الثورة الاسلامية» الى الشمال من نهر أراكس الفاصل بين ايران والاتحاد السوفياتي، آن لأصدقاء موسكو في المنطقة، على قلة عددهم، ان يراجعوا بعض الحسابات. أما الذين تشعلهم غيرة الدين، وتدفعهم لدعم اهل باكو بوجه الالحاد، فإنهم بعيدون بعض الشيء عن الواقع. فالانتفاضة الاذربيجانية ليست دينية، بقدر ما هي قومية، اثنية، وبالنهاية انفصالية. من هنا الاستنجاد بتركيا (العلمانية، السنية)، لا بايران (الاسلامية الشيعية) وغلبة التعاضد القومي - اللغوي، على المقولات الدينية. ونفهم طبعاً ان يحاول الايرانيون تصوير الامور هناك وكانها امتداد لسياستهم، وتصدير ناجح لثورتهم. ونفهم أيضاً ان يحاول غورباتشوف تصوير الأمر وكأنه تمرد ديني متطرف. لكن المسالة قومية بالأساس، وهي كانت مستعرة في القفقاز، سنوات وقروناً قبل ان تتبنى موسكو الالحاد.

الحساب الأساسي المطلوب مراجعته ليس اذن ايديولوجياً، ولا دينياً بل هو جيوسياسي. لقد ردد الروس كثيراً على مسامعنا مقولة ان ما يربطهم بمنطقتنا اساساً هو مصالح مبنية على الجوار الجغرافي. ولا ريب ان موسكو، منذ اتفاق يالطا وقبله، ما انفكت تركّز على ان لها عند العرب والمسلمين ما ليس لغيرها من الدول العظمى، بحكم كونها تكاد تكون من المنطقة. فالاتحاد السوفياتي دولة اسلامية كبيرة (عدد المسلمين السوفيات يفوق مثلاً عدد المسلمين جميعاً في الجزيرة العربية والخليج، ويفوق عدد مسلمي ايران، ويكاد يكون مرة ونصف اكثر من عدد مسلمي مصر). وموسكو من جانب آخر مجاورة للمنطقة العربية بصورة تختلف عن بريطانيا (وهي لم تكن قوة عظمى الا من خلال سيطرتها على البحار) وعن الولايات المتحدة (التي تكاد تكون على المصب الثاني للكرة الارضية).

أما موسكو فلها مع منطقتنا امتداد جغرافي متكامل، وهي امتدت جنوباً في القرن التاسع عشر لتصبح مملكة اسلامية في ثلث سكانها. لذلك فهي تنظر الى تدخلها في كابول الافغانية منذ سنوات عشر كما في باكو الاذربيجانية لأيام خلت، وكانه تدخل قوة اقليمية شرق اوسطية قادرة، لا تدخل قوة عالمية كبرى. فافغانستان وخراسان واذربيجان هي نقاط تماس الامبراطورية القيصرية مع منطقتنا، وهي تخضع بالتالي لقوانين الجوار المباشر، كما كندا او المكسيك (او بنما) مع الولايات المتحدة. لذا رفضت موسكو طلب ايران الغاء معاهدة ١٩٢١ التي تعطيها حق دخول الاراضي الايرانية في الظروف الاستثنائية، وصورت موسكو تدخلها في افغانستان وكانه عملية دفاع عن النفس، ولذا كانت موسكو تردد باستمرار على اسماع واشنطن ان للاتحاد السوفياتي (بحكم الجوار) مصالح في الشرق الاوسط ليست للولايات المتحدة، تلك الدولة العظمى، البعيدة، البعيدة. والذين يعتقدون ان موسكو ليست قلقة فعلاً من تملك كل من العراق والسعودية واسرائيل صواريخ تطال الاراضي السوفياتية نفسها، هم جاهلون لهواجس الروس الدفاعية، ولمدى اعتبارهم التاريخي للشرق الاوسط كمصدر خطر داهم على أمنهم.

تعود هذه الاعتبارات الأساسية للبروز الحاد، في وقت تساقط الايديولوجية الماركسية في الشرق الاوروبي، تساقط ورق الخريف. ولقد شاءت الصدف ان تتعدد لقاءاتنا مع خبراء سوفيات في الفترة الأخيرة. وفي مطلع هذه السنة كنت التقيت بمسؤول بارز في معهد الشرق في موسكو قال لي ما معناه ان حرباً ستنشب لا محالة بين ارمينيا واذربيجان خلال سنة ١٩٩٠ وان الجيش الأحمر سيضطر للتدخل المباشر هناك واسرّ لي ايضاً ان موسكو فقدت تماماً سيطرتها على اذربيجان حيث قامت ميليشيا محلية قوامها ٦٠ الف رجل بالسيطرة على الجمهورية. وعندما سألته عن مصدر السلاح اجاب ان اياً كان قادر على شراء كلاشنيكوف في سوق موسكو السوداء بحوالي ١٥٠٠ روبل. وما انقضى اسبوع واحد على هذا الحديث حتى كانت الحرب المذكورة قد انفجرت وتدخل الجيش الأحمر قد حصل.

كثيرون هم المسؤولون السوفيات الذين يتجولون حالياً في العالم. والاستماع اليهم في غاية الفائدة لرسم اطر منطقتنا. وان كان لي ان اوجز هذا الكلام لقلت:

- ان التنافس الايديولوجي بين موسكو وواشنطن قد انتهى في الشرق الاوسط، وما بقي هو تنافس جيوسياسي على المصالح. ذلك ان موسكو بحاجة لدعم الغرب بهدف تحديث آلتها الاقتصادية وهي بالتالي تسعى لتجنب حالات الصدام مع الغرب كلما كان ذلك ممكناً. اما الدول التي كانت تنظر اليها موسكو بروح ايجابية بوصفها «على طريق الاشتراكية» فالعمل جار على تحويل العلاقة معها الى علاقة سياسية واقتصادية بحتة لأن الامال المعقودة على بناء الاشتراكية في هذه البلدان قد باءت بالفشل. ومن هذه البلدان بورما والهند واليمن الجنوبي وسورية.

- منطقة الشرق الاوسط هي اخطر المناطق في العالم، من حيث نوعية النزاعات الممكنة فيها، وامكانية تاثر علاقات موسكو بالغرب من جراء نشوب هذه النزاعات. لذلك فالاتحاد السوفياتي يسعى بجهد دؤوب لمنع تدهور الامور فيها، ويسعى بالذات لتجنب اي مواجهة سورية - اسرائيلية على الارض اللبنانية. لذا فان موسكو تسعى لحل اي قضية قابلة للحل بالتعاون مع واشنطن بحيث لا تتدهور لاحقاً الى مجال للنزاع بين القوتين العظميين. لهذا السبب ايضاً فان اقامة علاقات ديبلوماسية مع اسرائيل اصبحت امراً لا مفر منه.

- الزعامة الحالية في موسكو لا أوهام لديها حول طبيعة الانظمة القائمة في الدول الحليفة، لا سيما العربية منها، فقد تكون هذه الانظمة مثل نظام تشاوشيسكو واسوأ لكن حلفاء موسكو قليلون، ومن هنا فان موسكو لا تقبل لا بعزل هذه الأنظمة ولا بسقوطها، خصوصاً ان البديل عنها غير واضح وغير جاهز. ولكن الزعامة الحالية بحاجة ايضاً لانتصارات ديبلوماسية في الخارج لتقوية وضعها الداخلي خصوصاً ان الاحوال الاقتصادية السوفياتية لم تتحسن كثيراً خلال سنوات غورباتشوف الخمس في السلطة، وان انفجار النزاعات العرقية والاثنية يضع هيبته داخل الاتحاد السوفياتي في مهب الريح. وقد تكاثرت فعلاً دعوات المحافظين والليبراليين الروس على السواء لاستقالته. لذلك فان أي انتصار ديبلوماسي له في الخارج، وأي تعبير غربي عن التقدير لدوره السلمي، من شانه ان يعزز وضعه السياسي المتذبذب في الداخل.

- يعترف الاتحاد السوفياتي بان هناك ترابطاً بين ما يحصل في الداخل القفقازي وما يحصل في منطقة الشرق الاوسط. وترى موسكو بالذات ان الشرق الاوسط الذي كان فيما مضى مجالاً رحباً لتدخلها ولفرص ثمينة لاثبات وزنها الدولي اصبح اليوم مصدر خطر عليها. فمن الشرق الاوسط تاتي دعوات الاصولية الدينية التي تمس جمهورية اوزبكستان (السنية) اكثر مما تمس جمهورية اذربيجان (التركية اللغة، الشيعية المذهب اجمالا). ومن خلال نهر اراكس الفاصل مع ايران، ربما دخلت شحنات الاسلحة، ومطبوعات اصولية، بل واعداد من المتطوعين الايرانيين. وربما ان شحنات من الاسلحة مصدرها لبنان قد وصلت الى جمهورية ارمينيا، ناهيك طبعاً عن قيام السكان المحليين بالغاء الحدود بين شطري اذربيجان الايراني والسوفياتي.

- ويضيف السوفيات: بينما كانت منطقة الشرق الاوسط هدفاً سهلاً لصواريخنا في السنوات الأخيرة، فان الاراضي السوفياتية اصبحت الآن هدفاً سهلاً للصواريخ المنصوبة في الشرق الاوسط. فالصواريخ التي في السعودية مصدرها صيني، وفي العراق واسرائيل صواريخ اخرى لعبت فيها التكنولوجيا المحلية دوراً كبيراً. من هنا تحول الجوار مع منطقتكم من علاقة احادية الجانب على المستوى الستراتيجي الى علاقة متبادلة ومصدر خطر ايضاً.

هذه اذن بعض عناصر الصورة الجديدة التي لمنطقتنا في موسكو، وهي تشير الى ان الاتحاد السوفياتي ليس على الاطلاق في مرحلة تقليل الانتباه لمنطقتنا، بقدر ما هو يضاعف من انتباهه واهتمامه. ولكن نوعية هذا الاهتمام قد تغيرت، فالموقف السوفياتي اصبح أكثر تركيزاً على الدفاع عن وحدة الاراضي السوفياتية وعن استمرار السلطة المركزية بالسيطرة على الجمهوريات الاسلامية في القفقاز وفي آسيا الوسطى. وهذا يعني ايضاً ان الاتحاد السوفياتي سيسعى بصورة حثيثة لتحييد أكبر عدد من دول المنطقة التي يعتبر انها قادرة على التأثير على اوضاعه الداخلية، وبالذات في الجمهوريات الاسلامية، واهم هذه الدول برأيه هي ايران والسعودية وباكستان. وهذا يعني ان التحالفات المميزة التي انشأتها موسكو مع عدد من الدول الاخرى في المنطقة سيتضاءل وزنها ويخف شانها.

ويعني هذا التوجه ايضاً ان عنصرين أساسيين جديدين سيلعبان دوراً متزايداً في الحسابات السوفياتية. الاول هو محاولة تجنب حصول دول المنطقة على اسلحة متقدمة جداً يمكن ان تهدد الاراضي السوفياتية. ويعني هذا الامر ان موسكو ستسعى للتخفيف من حدة النزاعات القائمة، ووقف سباق التسلّح في مجال الاسلحة المتقدمة تكنولوجياً. اما العنصر الثاني فهو العنصر النفطي اذ ان موسكو ستتحرر تدريجاً من قيود التعامل مع دول المنظومة الاشتراكية التي كانت تستورد الكثير من النفط السوفياتي، وموسكو ستلعب بالتالي دوراً مفيداً في محاولة حمل اسعار النفط على الارتفاع، بتعاون أوضح مع دول اوبك وفي طليعتها المملكة السعودية والعراق.

ويعني هذا التوجه اخيراً ان الكثير من الضباب الايديولوجي الذي ساد العلاقة العربية - السوفياتية في العقود الاخيرة سيتكشف تدريجاً ليحل مكانه وضوح علاقات الجوار الجغرافي والمصالح الاقتصادية. ادارة بوش تقول انها لم تلمس بعد حججاً واضحة للاعتقاد بان «التفكير الجديد» السائد في موسكو قد بدأ تطبيقه في منطقة الشرق الاوسط. واشنطن تقول ذلك لأنها غير مستعدة للتضحية بسيطرتها شبه المطلقة على منطقتنا منذ ما يقارب العقدين. اما العرب، فعليهم التاقلم السريع مع هذه المعطيات الجديدة حقاً، مهما ادعى الاميركيون. ولكن بعض انظمتهم المترهلة غير قادرة على التاقلم لا مع هذه المعطيات ولا مع غيرها!

---

* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.